

الحركة الطلائية الجزائرية خلال الاحتلال الفرنسي: رصيد الوعي بالذات والمصير.

~~~~~ أ. عبد الجليل قريان \*

إن الحرب التي قادتها فرنسا ضد الجزائر كانت في الواقع جزءا من الاستراتيجية الغربية التي بدأ تطبيقها منذ سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م، وكان من أهم أهدافها ملاحقة المسلمين في الشريط الساحلي الجنوبي للبحر المتوسط ومحاصرة دوله. ومنذ ذلك الوقت شهدت بلاد المغرب الإسلامي كله حملات غير منقطعة للجيوش البرتغالية والإسبانية. وقد سجل المؤرخون حروبا ضارية طوال ثلاثة قرون تلت سقوط غرناطة<sup>1</sup>، كان للأسطول البحري الجزائري وعلاقته بالدولة العثمانية دور كبير في كبح جماح الأوروبيين وتأخير احتلال الجزائر. وعندما كُسر هذا المارد البحري أصبحت الجزائر تحت نار الاحتلال سنة 1830.

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر كان يجر أمامه رصيدا تاريخيا من الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والغرب الصليبي، وظلت روحه مشبعة بمشاعر الانتقام والرغبة في آن واحد، ولذلك سارعت مختلف طبقات المجتمع الفرنسي والأوروبي<sup>2</sup> وعلى رأسها البابا والكنيسة لمباركة الحملة الفرنسية على الجزائر وتقديم العون المادي واللوجستي لإنجاحها. وكانت هذه الحرب شاملة، جرت فيها عملية تدمير واسعة وإبادة لكل مقومات الأمة الجزائرية. وقامت منذ أول يوم وطئت أقدامها أرض الجزائر بتصفية ممنهجة سريعة في معظم الاحيان لكل معلم من معالم الحضارة والحياة الإنسانية، واكتسحت كل المجالات الحيوية: العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية، واستخدمت من أجل تحقيق ذلك كل الوسائل اللامشروعة والأخلاقية<sup>3</sup>. فإلى جانب الاستيلاء على الأراضي ومصادرة الأملاك والفتك بالعنصر البشري تقتيلا وتشريدا، فقد نال الجانب الثقافي والحضاري هو الآخر نصيبه من التدمير والتصفية.

إن هذا الجانب المتمثل في محور المنظومة الثقافية يرتبط عضويا بمدى قدرته على إنتاج جيل من الطلبة يستوعب خلفية هذه المنظومة وأهدافها، ويكون الخلف الذي تمتد وتزهر من خلاله

\*- أستاذ مساعد أ في تاريخ المغرب الإسلامي - قسم التاريخ وعلم الآثار - جامعة قلمة.

ثقافة السلف. وقد ادركت فرنسا أن الرهان الاوفر حظا لتحقيق مشاريعها هو تفكيك هذه المنظومة وإعادة صياغة نوعية جديدة من الطلبة تُصنع على عينيها. وفي هذا الصراع بين المنظومتين الاصيلية والدخيلة كان الطلبة في صلب هذا الصراع يتكيفون بمرارة من أجل تجاوز محنة من أشرس ما تعرضت له أمتهم في تاريخها الطويل.

لذلك لا يمكننا بحال من الأحوال تلمس عمق أثر التجربة الطلابية في الجزائر ما لم نتفهم رصيد الحركة الطلابية خلال الاحتلال الفرنسي، وكيف سارت حلقاتها، وما هي معاناتها، وكيف تفاعلت مع تطورات أحداثها، وما هي أوجه كفاحها ونضالها إلى أن أصبحت رقما مهما في يد الشعب الجزائري، وأهم سند ترتكز عليه الثورة التحريرية.

لقد مرت الحركة الطلابية بالجزائر خلال الاحتلال الفرنسي بثلاث مراحل أساسية:

المرحلة الأولى: التغيب والغربة ( 1920-1930 ).

أولاً: التغيب: لقد كانت الحربُ الحضارية بالنسبة لفرنسا محور الأساس الذي عولت دوائرها الاستعمارية على اقتحامها بكل قوة وحماس من أجل الوصول إلى التغيير الجذري للملامح الجزائرية، وإعادة صياغتها بما يتوافق مع أهدافها في إطار ما يمكن وسمه بمشروع "البتة والإلحاق"<sup>4</sup> حيث يُستأصل المجتمع الجزائري من جذوره الحضارية العربية الإسلامية ويُلحق بالحضارة الغربية الصليبية<sup>5</sup>، أو بمعنى آخر توفير شروط الاحتلال الحضاري. ولم يكن في واقع الأمر سوى التعليم القاعدة التي سوف ينطلق منها لتنفيذ هذا المشروع باعتبار التعليم القناة التي تتم عبرها عملية التفريغ والشحن وإعادة صياغة المجتمع وفق المنظور الغربي الفرنسي.

ويبدو أن مخابر الاستخبارات العلمية المتخصصة في الدراسات الانثروبولوجية التي كانت تعمل عملها في دراسة الراهن الجزائري قبل الاحتلال قد أكدت محورية التعليم في تشكيل البنية الاجتماعية للشعب الجزائري واعتباره العقبة الأساسية في تحقيق مشروعهم الاحلالي، وإذا ماتم التحكم فيه تمت السيطرة على الجوانب الأخرى تباعا. ولذلك فإن الإدارة الاستعمارية وبغية تحقيق هذا المشروع الذي يشكل قاطرة المشاريع الأخرى وعدم الوقوع في أي خطأ استراتيجي استنفرت كامل جهودها العسكرية والعلمية وأسست لما يمكن تسميته بـ "إجراءات الهيمنة الضامنة"، ونعني بـ "الهيمنة الضامنة": الإجراءات التي تضمن تحقيق المشروع واستمراره مهما كلف ذلك من ثمن. ولتنفيذ هذه السياسة بادرت سلطة الاحتلال كمرحلة أولى إلى فرض عملية تجهيل منهجة واسعة النطاق على الشعب الجزائري، وضربت عليه حصارا صارما

لتجفيف منابعه العلمية والثقافية والحضارية، وعزله عن محيطه العربي والإسلامي، وقطع الحلقة الرابطة بينه وبين ثقافته وتاريخه، أو بعبارة أخرى "التغيب القسري لكل أثر حضاري جزائري". ثم بعد ذلك وفي مرحلة تالية إذا ما تحقق هذا الهدف نسيباً وسكنت الأمة في جهلها وركنت إلى مصيرها، أمكن لفرنسا أن تعيد صياغة تاريخ هذا الشعب وتنقيفه وفقاً لرؤيتها ومنهجها وأسلوبها وأدواتها، وتيسر لها احتواؤه وإخاؤه بفرنسا.

وقد توزعت هذه الإجراءات في إطارين أساسيين:

الإطار الهيكلي: وتم من خلاله تصفية معظم المرافق والبنى التحتية للمنظومة التربوية والعلمية الجزائرية من مساجد ومدارس وزوايا وجمعيات ومكتبات وخزائن كتب، بالإضافة إلى الوثائق والأرشيف، واحتفظ الاحتلال بما يفيد، واستخدمت بعض المرافق في المصالح المدنية والعسكرية للاحتلال. وبالمقابل إنشاء مؤسسات تعليمية فرنسية تحل محلها وتملاً الفراغ الذي أوجدته فيما يخدم توجهاتها.

لم تكن فرنسا في واقع الأمر قتم لأى إرث حضاري وجدته في الجزائر. وعلى العكس من ذلك رأت بأن الإطار الطبيعي للتواصل الحضاري هو التعليم بمختلف مستوياته وفروعه، والمحضن الطبيعي لنموه وإطراده إنما تضطلع به مؤسسات التعليم المختلفة. وتحقيقاً لمشروعها الإحلائي قامت بشن حرب شعواء على كل مظهر من مظاهر التعليم وعلى كل معلم من معامله، في محاولة لسلب الشعب الجزائري اعترافاً على سلاح يملكه على حد تعبير الجنرال دو كرو (Ducrot) في تقريره عام 1864 الذي سماه: "تقرير حول الوسائل التي يجب استعمالها من أجل فرض السلام في الجزائر" حيث قال: "يجب علينا أن نضع العراقيل أمام المدارس الإسلامية والزوايا كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً... وبعبارة أخرى يجب أن يكون هدفنا هو تخطيط الشعب الجزائري مادياً ومعنوياً"<sup>6</sup>. وتنفيذاً لهذه الاستراتيجية استولت السلطات العسكرية على الأوقاف الدينية، وأعطت الأوامر لهدم المساجد، وحولت بعضها إلى كنائس وبعضها إلى مرافق عسكرية ومدنية في أول الأمر ثم هدمت في تواريخ لاحقة<sup>7</sup>، ولم تبق إلا على القليل منها تحت المراقبة الصارمة. ولا ينبغي أن نمر دون أن نشير كمثال على ذلك أن عدد المساجد في مدينة الجزائر العاصمة وحدها غداة الاحتلال فاق 176 مسجداً، وما بقي منها سنة 1899 سوى 5 خمس مساجد<sup>8</sup>. وكذلك الحال ذاته في بقية المدن الجزائرية كقسنطينة وتلمسان وعنابة وبجاية وغيرها<sup>9</sup>.

وبنفس الهمجية تمت تصفية وهدم واسعة النطاق للمدارس والزوايا التي شكلت منارات للعلم والحضارة في كل مدينة من مدن الجزائر<sup>10</sup>.

وبتصميم غريب وإمعانا من سلطات الاحتلال في وأد وإعدام أي أثر تاريخي أو علمي فقد تم إتلاف الآلاف من الوثائق والسجلات تزامنا مع أولى الحملات وأمام القادة الفرنسيين، وخربت المكتبات وخزائن الكتب بعدما فُتت نفائسها وذهب الكثير منها هدايا إلى المكتبات الفرنسية<sup>11</sup>. وفي فترة وجيزة من احتلال الجزائر اختفت معالم الحضارة والعلوم من مساجد ومدارس وزوايا وكتاتيب، واختفى باختفائها العلماء الذين انضم بعضهم إلى الجهاد والمقاومة، أو هاجروا من البلاد، وكاد التعليم أن ينتهي من الجزائر<sup>12</sup>.

وتبغى الإشارة إلى أن التعليم في الجزائر قبل الاحتلال استوعب الابتدائي والثانوي والجامعي، وكانت بالوطن جامعات تضاهي الجامعات العربية. ونكتفي بشهادة الجنرال الفرنسي "هوتبول" في مذكرة بعث بها سنة 1850م إلى رئيس الجمهورية الفرنسية الثانية وفيها ما يلي: "كانت الثقافة الإسلامية في الجزائر واسعة الانتشار وشاملة للفروع الآتية :

1- التعليم الابتدائي: ويشمل الأطفال بين الثالثة والعاشر.

2- التعليم الثانوي: ويشمل الأطفال بين العاشر والخامسة عشرة.

3- التعليم العالي: ويشمل الحقوق والفقه والرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب.

وكان التعليم في الثانوي والعالي مجانيا كالابتدائي، وكان يوجد في الجزائر أيضا جامعات أهمها جامعة قسنطينة وجامعة مدينة الجزائر وجامعة تلمسان وجامعة مازونة وبسكرة، وكانت هذه الجامعات من مستوى جامعة القاهرة وجامعة تونس وجامعة فاس، وكانت تضم آلاف الطلبة<sup>13</sup>.

الإطار التنظيمي: بالموازاة مع ذلك تم إصدار ترسانة من القوانين الاستثنائية بهدف تحطيم معنويات المجاهدة، وتوفير الغطاء للضرب بيد من حديد كل من يحاول أن يتحرك في الاتجاه المعاكس للمشروع الفرنسي، من ذلك: قانون تجريم استعمال اللغة العربية واعتبارها لغة أجنبية، وقانون إلغاء القضاء الإسلامي، وقانون الجنسية، وقانون الأهالي سنة 1871<sup>14</sup> وغيرها من القوانين. ومن جهة أخرى نظمت المدارس الفرنسية وأتاحت التعليم فيها لكل أبنائها،

وأطلقت الحرية للمبشرين ولاسيما الآباء البيض والأخوات البيض والمستشرقين الفرنسيين للظعن في الإسلام وتراثه.

لم يكن في وسع الطلبة في هذه الأثناء سوى التكيف مع الظروف المفروضة، فقد كان توجههم للدفاع عن الأمة واستمراريتها يختلف باختلاف الإمكانيات الشخصية والمادية والعلمية، وتنوعت بين الجاهزة العسكرية والجاهزة الحضارية. فإذا كانت مجاهدة عثمان خوجة وأضرابه سياسية، فإن لفيقا من الطلبة انضم إلى المقاومة المسلحة كالأمير عبد القادر وبعض طلبة الزوايا، وجزء آخر استمر في التعليم وتداوله بعيدا عن أعين فرنسا. فرغم التدمير الشامل الذي تعرضت له المؤسسات العلمية والتعليمية والتحكم في مفاصل التعليم وتفصيله، والمراقبة القمعية المركزة لأي نشاط متعلق بالتعليم والوعي المجتمعي، والتدابير والإجراءات المكثفة، استطاع الشعب الجزائري أن يتكيف مع ظروف الاحتلال القاهرة، وأن يجد حلولاً متوائمة مع هذا الوضع، وأن يقي على تعليم أبنائه بعيدا عن أعين الاحتلال في المدن والقرى والمداشر، وأن يخفف من برنامج التجهيل الذي يتعرض له، وكان في هجرة أبنائه نحو المشرق والمغرب ملاذا آمنا حيث لا مأمّن في الداخل، وفكا للحصار الذي ضرب عليه، فكانت الهجرة الطلابية مركزة نحو جامع القرويين بفاس وجامع الزيتونة بتونس والجامع الأزهر بمصر.

ثانيا الغرب: استطاعت فرنسا أن تحقق نسبة عالية من خطتها في شقها الأول في تجهيل الشعب وحمية الجهل وتنميته عشرات السنين، ولكنها لم تستطع اختراق التواصل القيمي الذي كان ينقله الاجداد والآباء للأبناء والأحفاد، وكانت ثقافته الذاتية محصنة في وجه كل ثقافة مفروضة باعتبار أن كل أسرة بمثابة حامل للجينات التاريخية تنقلها بأمانة إلى الأجيال اللاحقة، وبقيت فرنسا في الذاكرة الفردية والجماعية دولة عدوة مستعمرة دخيلة بمحتواها الانساني والحضاري رغم تطاول الزمن.

إن عملية التدجين التي فرضها الاحتلال على الشعب الجزائري لتحقيق الشق الثاني من خطته لم تؤت ثمارها، وبعد أن سكنت الأوضاع وتمت السيطرة على كل منابع إلا فيما لا يحس الاستعمار، ولاستدراك ما فاتة انفتحت السلطات الاستعمارية على تعليم نسبة ضئيلة من الأهالي بشروط مضنية، وعبر مرشحات دقيقة، وتحت المراقبة المركزة والصارمة، وسمحت لها بالتعلم في المدارس الفرنسية بالجزائر لتنشئة جيل ترعاه فرنسا على عينها يكون رائد شعبه نحو الفرنسية<sup>15</sup>، ويسهل عمليتي الادمج والإخضاع<sup>16</sup>.

لا نكون مغالين إذا قلنا بأن تلك النماذج من الطلبة الجزائريين الذين التحقوا بالمدرسة الفرنسية أضحت غير قادرة على التوفيق بين أحوال شعبهم الذي يعيش في ظروف لا يمكن مقارنتها البتة بما يتوفر عليه الفرنسيون المحتلون. وإذا كانت دراستهم قد أكسبتهم نوعا من الأريحية المسيجة فإنهم باتوا أكثر الطلبة عرضة لظاهرة الغربة في بلد أصبحوا يدركون فيه بالممارسة العملية أنهم يعاملون كأجانب، وأنهم يخضعون لمناهج تعليمية تقطعهم عن جذورهم، وتفيض بالتقدير والثناء على حضارة الاحتلال.

ويبدو أن هذا الشعور بالغربة قد أصبح مؤرقا لبعض الطلبة، وكان دافعا لهم إلى الاجتهاد في إثبات ذواتهم بالتفوق والنبوغ العلمي، وكانت آفاقهم تنرنو إلى اليوم الذي يستطيعون فيه الانفلات من هذه الغربة، والرد على كل الأسئلة الطويلة المخرجة التي باتت تنغص حياتهم. ونميل إلى الاستنتاج بأن الاحتكاكات التي كانت بين الطلبة الجزائريين والفرنسيين، ونوعية المناقشة التي تدور بينهم، وظهور مشاعر الغربة في حديثهم، كانت وراء تلك الوثيقة المطروحة من قبل السكان الأوروبيين في مؤتمر المستعمرين بالجزائر سنة 1908 طالبوا فيها بالإلغاء النهائي للتعليم الابتدائي في الجزائر جاء فيها على الخصوص: "اعتمادا منا بأن تعليم الوطنيين في الجزائر إنما ينطوي على محاذير حقيقية سواء في المضمار الاقتصادي أو بالنسبة للسكان الأوروبيين الفرنسيين، فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الابتدائي لهؤلاء الوطنيين إلغاء نهائيا"<sup>17</sup>.

ونظرة على إحصائيات الطلبة الجزائريين تفي بتقدير حجم التجهيل والتغيب الذي تعرض له الشعب الجزائري، وتؤكد من جانب آخر مقدار الحذر الذي كانت تخشاه الدوائر الاستعمارية من اتساع دائرة تعليم الجزائريين. فبالإضافة إلى غربة الشعور، قاسى الطلبة الجزائريون غربة الحضور إذ أن الإحصائيات الرسمية لسلطات الاحتلال أشارت إلى أن نسبة التلاميذ الجزائريين في المدارس الابتدائية الاستعمارية كان سنة 1880 مقدرا ب 1.9% من مجموع التلاميذ الذين هم في سن التمدرس، وفي سنة 1908 أصبحت النسبة 4.3%. وكان عدد الطلبة الجزائريين في معاهد التعليم العالي المفرنس سنة 1884 قد وصل إلى ست (6) طلاب، وفي سنة 1908 أصبح عددهم خمسين (50) طالبا. وبالنسبة للثانوي كان عدد الطلبة الحاملين لشهادة البكالوريا في سنة 1914 يقدر بـ 67 طالبا<sup>18</sup>.

النموذج: بدأت النتائج التي تخوف منها الأوروبيون المستوطنون تظهر عيانا، لقد أصبح واحد من هؤلاء الطلبة فيما بعد أول طالب جزائري يتحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الجزائر سنة 1920<sup>19</sup> ليصبح بعدها في سنة 1924 أستاذا بكلية الآداب بالجامعة نفسها<sup>20</sup> عوضا عن أحد كبار المستشرقين وهو م. كولان M COLIN المتوفى في هذه السنة، ذلكم هو الطالب والأستاذ الدكتور محمد بن أبي شنب رحمه الله<sup>21</sup>.

هذا الطالب والأستاذ الجامعي خير من مثل ظاهرة الغربة والتعامل معها بذكاء وفقا للظروف وتكيفها مع المتاح من الثغرات. لقد كان على وعي كبير بما آلت إليه وضعية شعبه من طمس لتاريخه وهويته، فكان يعبر عن ذلك بمظهره وفكره، حيث كان ملتزما بلباسه العربي الإسلامي، واستطاع بذكاء ومن موقعه كباحث أن ينسج شبكة من العلاقات العلمية والإسلامية<sup>22</sup>. ونظرة سريعة على مؤلفاته ندرك تلك الغربة التي كان يدافعها ويحارب من أجل التخلص منها من موقعه بمختلف الطرق والوسائل، وأن ينفذ الغبار على كثير من كتب التراث الإسلامي والجزائري والمغاربي بالخصوص، مؤكدا لشعبه ولفرنسا بأن تاريخ الجزائر أعمق وأشد رسوخا من أن تصل إلى اجتثاثه أيادي الاحتلال، فقام بتحقيق مجموعة من الكتب منها<sup>23</sup>:

- "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم المديوني التلمساني، طبع بالجزائر سنة 1908م"<sup>24</sup>.

- "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العباس أحمد الغبريني، نشره بعد أن قابله على أربع نسخ مخطوطة وطبع بالجزائر سنة 1910<sup>25</sup>.

- صحح مجموعا تاريخيا يحتوي على كتاب "طبقات علماء افريقية" لأبي العرب محمد التميمي، و"طبقات علماء افريقية" لأبي عبد الله محمد بن الحارث الحشني، و"طبقات علماء تونس" لأبي العرب محمد التميمي طبعت بباريس سنة 1915 و1920م.

- وحقق كتاب "الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية" طبع بالجزائر سنة 1920<sup>26</sup>.

- نشر "رحلة الحسين الورثاني" طبع بالجزائر سنة 1908م.

- حقق كتاب "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" لابن قنفذ القسنطيني لم يطبع<sup>27</sup>.

- ألف كتابا في تاريخ الرجال الذين رووا صحيح البخاري وبلغوه للجزائر، نشره بالفرنسية في مجموع مقالات الوافدين على مؤتمر المستشرقين بالجزائر سنة 1905م.

وكان رحمه الله مهتما اهتماما بالغا بتاريخ الجزائر، فقد ذكر تلميذه عبد الرحمن بن محمد الجليلي أنه كان عازما على تأليف تاريخ عام للجزائر يجمع فيه تاريخها المشتت، مع التعرض لجغرافيتها الطبيعية والاقتصادية والأحوال السياسية والاجتماعية التي تعاقبت عليه، وذكر الحالة العلمية وانساب العائلات القديمة وتراجم أعيانها وقادة الفكر المشهورين، وأخبره في بحر سنة 1346هـ/1927م بأنه منشغل في جمع مواد هذا التاريخ العظيم، ولكن المرض أدركه وتوفي قبل أن يجره<sup>28</sup>. ويبدو أن هذه الكلمات العميقة قد أثرت في الطالب عبد الرحمن الجليلي، ووفاء لأمنية أستاذه قام بتأليف كتاب حول تاريخ الجزائر بعنوان: "تاريخ الجزائر العام" في أربعة أجزاء، وطبع في سنة 1955م، اتبع فيه نفس المنهج الذي عرضه عليه أستاذه ابن أبي شنب قبل وفاته، ولا يزال هذا الكتاب من المراجع الأساسية في تاريخ الجزائر.

لقد كان الأستاذ الدكتور محمد بن أبي شنب من الشخصيات الجزائرية التي أعطت روحا جديدة للجزائر، مؤكدة على الخزان الروحي للأمة الجزائرية. كما كان رمزا للحركة الطلابية الجزائرية الواعية والنشطة والتي حاولت وفقا لظروفها إحياء الجزائر من موقعها وبطريقتها الخاصة. وقد أشار إليه تقرير المؤتمر الثالث لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا كنموذج وحيد استطاع أن يصبح بجدارة أول أستاذ جامعي جزائري<sup>29</sup>.

المرحلة الثانية: الوعي التفاعلي (1920 - 1954): شهدت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين موجة من الوعي الحضاري الإسلامي مؤسسا في الجامعة الإسلامية والأفكار التنويرية للسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده<sup>30</sup>. وابتداء من العقد الثاني من القرن العشرين والتغيرات الدولية الكبيرة<sup>31</sup> التي ساهمت في الانفتاح السياسي النسبي خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وانسياب الأفكار التحررية وحقوق الشعوب في تقرير مصيرها، ورجوع طلبة المهجر بمختلف توجهاتهم، وإطلاق الحرية لتكوين الهيئات، واكتشاف الغبن والغربة بشكل أوضح وأفدح... ظهر نتاج طلابي سوف يكون له دور أساسي في إعادة الوعي.

إن الطبقة الطلابية التي خرجت في عشرينات القرن العشرين كانت مثقلة بتبعات تسعة عقود من أسر للهوية وتغييبها بالجهل والتدجيل، ولذلك كانت بها آثار لانساق إيديولوجية مصنوعة على عين الاستعمار، غير أنها لم تكن مؤثرة في الجرى العام للطلبة الذين برزت مسيرتهم بخطى حذرة مكثفة بالهوامش المتاحة في انتعاش مختلف الأجهزة العضوية الأساسية في

المجتمع. وكلين الاهتمام مركزا في الذاكرة أو الهوية وإعادة بعثها لاستعادة شبكة العلاقات الاجتماعية وفق المنظور الحضاري الوطني.

إن تنامي الوعي عند الفئة الطلابية قبل غيرهم ليس وليد ظرف معين جعلهم يستيقظون من سباتهم، إنه كامن في أعماقهم وفي كل نظرة من نظرات آبائهم وأمهاقم. إن كل حرف تعلموه في قيو مظلم تحت ضوء شمعة، أو من وراء ستار أو جدار خوفا من بطش الاحتلال، أو هاجروا من أجله إلى موطن آمن، وتحملوا عنت الأسفار وفراق الأهل والديار، كان يخبرهم بأن بلدهم يعيش تحت مقارع الأعداء، وأن من مهامهم أن يعينوا هذا البلد على تجاوز محنته... نعم كان هذا الوعي راسخا في نفوسهم ولكن ظروف الدهر وصروفه كانت أكبر مما في أيديهم. ولكن بعد أن لاحت في الأفق بوارق الحركة سارعوا إلى استغلالها وأثبتوا جدارتهم. وكانت الخطى تسير في الممرات التي لا يتمكن الاحتلال من التنبه إليها. وبدا التفاعل الطلابي يتعامل مع نفسية الاحتلال بالتردد المريح الهادئ، ورفع مستوى الحراك والمطالب بدرجات محسوبة تؤدي دورها المرحلي، وتجنبه ردات الفعل القاسية، فظهرت "جمعية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا" بالجزائر سنة 1919 التي تحولت فيما بعد إلى "جمعية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا" سنة 1927<sup>32</sup>. وأسس الطلبة سنة 1920 تنظيما طلابيا أطلقوا عليه اسم "ودادية الطلبة المسلمين الجزائريين"، وتحول فيما بعد إلى "جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين"، وشارك بعض أعضائه في تكوين "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين". وعكس الطلبة من التموقع في مركز التأثير المجتمعي، وتزايد نشاطهم في كل الوسائل والوسائط المتاحة (صحافة - أحزاب...) . وبمرور الزمن بدأت الأمة تمتثل للشفاء التدريجي. وكان من نتاجها تأليف أول كتاب حول تاريخ الجزائر للطلاب مبارك بن محمد الميلي بعنوان "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" الذي طبع سنة 1928. غير أن ثمة موقفا بارزا كانت له آثاره الكبيرة في إثارة الطلبة نحو تحمل تبعه إنقاذ وطنهم الذي يحتفل المستعمرون بمرور مائة عام على احتلاله.

الاحتفالات المثوية وأثرها في تنمية الوعي والحركة: من المفارقات أن الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر كانت بكل المقاييس مفزعة للاحتلال قاصمة لكيانه. لقد كانت هذه الاحتفالات مثيرة وملهبة لمشاعر كل الجزائريين وخاصة فئة الطلبة، ذلك أن سلطة الاحتلال استمرت ثلاث سنوات كاملة تحتفل بهذه المناسبة ابتداء من سنة 1927 إلى 1930، وفي سنة 1929 قام الاحتلال بحل حزب "نجم شمال إفريقيا" لتعاونه مع "جمعية طلبة شمال إفريقيا

المسلمين"<sup>33</sup>. وتلتها بعد ذلك الاحتفالات باحتلال قسنطينة سنة 1937. وقد ظهرت كتابات كثيرة حول هذه المناسبة سميت بـ "المجموعة المئوية الجزائرية" *Collection de centenaire de l'Algérie*. وكان من الآثار المباشرة لهذه الاحتفالات إنشاء نادي الترقى سنة 1927<sup>34</sup>. وتأسست جمعية العلماء المسلمين في 5 ماي 1931 بنادي الترقى. وكانت الروح الوطنية قد تأججت ضد فرنسا، وأطلقت الصحافة الجزائرية على هذه الاحتفالات اسم "مهازل سنة 1930"، ورددت العبارة القائلة: "إن الفرنسيين لن يحتفلوا بثاني عيدهم"<sup>35</sup>.

أما الطلبة فإنهم بدؤوا في تفعيل جمعيتهم "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" وعقدوا سلسلة من المؤتمرات

- وكان المؤتمر الأول للجمعية بالمدرسة الخلدونية بتونس من 20-22 أبريل 1931 شارك فيه الطلبة الجزائريون بوفد طلابي هام من 7 أشخاص برئاسة الطالب الصيدي فرحات عباس.

- وعقدت الجمعية مؤتمرها الثاني بنادي الترقى بالجزائر العاصمة ما بين 25-29 أوت 1932.

- وكان من المفترض أن يعقد المؤتمر الثالث في مدينة فاس بالمغرب الأقصى إلا أن السلطات الاستعمارية رفضت في آخر لحظة انعقاده في هذه المدينة، ورجعت الوفود المغاربية المشاركة، مما دفع الطلبة لعقده في ديسمبر من السنة نفسها 1933 بمدينة باريس. وقد أعد المنظمون راية كبيرة مثلثة الألوان (أخضر وأبيض وأحمر)<sup>36</sup> جعلت رمزا لوحدة أقطار شمال إفريقيا، وعلقت على واجهة قصر التعاون الذي عقد فيه المؤتمر.

- وعقد المؤتمر الرابع في شهر أكتوبر من عام 1934 في المدرسة الخلدونية بتونس، وشارك فيه عن الجزائر: السعيد الزاهري، ومفدي زكريا.

- أما المؤتمر الخامس فقد عقد في مدينة تلمسان بالجزائر بين 6-15 سبتمبر 1935، وافتتحه الشيخ البشير الإبراهيمي. وكانت الخطب في هذا المؤتمر باللغة العربية وبنبرة هجومية ضد الإدارة الفرنسية تدعو إلى الالتحام مع القضية الوطنية والإسلام. واضطر المؤتمرون تغيير القاعة بعد أن منعتهم سلطة الاحتلال من مواصلة أشغاله<sup>37</sup>.

- المؤتمر السادس عقد بمدينة تيطوان بالمغرب سنة 1936 بعد أن رفضت السلطات الفرنسية عقده في مدينة فاس.

لقد كانت هذه المؤتمرات معبرة عن مدى النضج الوطني والمغاربي والوطني التاريخي لدى الطلبة بأهمية التعليم في تكوين الشخصية الوطنية والإسلامية، فكانت كل مؤتمراتهم منصبة على

مناقشة قضايا التعليم ومشاكله المختلفة وقضايا التاريخ الوطني والتربية الوطنية، ودافعت بصورة خاصة على الشخصية العربية الإسلامية<sup>38</sup>. وقد أسفرت هذه الملتقيات عن كشف دقيق لمستوى التعليم في المغرب العربي، وكثفت من مطالبتها نحو تحسين أداء التعليم، وفتح حرية التعليم والاهتمام باللغة العربية والإسلام في صياغة الشخصية الجزائرية. وكان لهذه المؤتمرات الطلابية صدى واسعاً في مختلف شرائح المجتمع المغربي التي كانت تتابع عن كثب نتائجها، وكانت بعض الهيئات والشخصيات تبرق للمؤتمرين أثناء انعقاده مؤكدة مساندتها وداعمة استمراريتها<sup>39</sup>. وساهمت الحركة الطلابية في تكوين وعي وطني وأنتج طبقة طلابية معتبرة.

وبعد هذه المؤتمرات بدأ قطاع الطلبة الجزائريين ينمو ويتطور بكل تياراته وإيديولوجياته واتجاهاته ومشاربه المتنوعة سواء في المدارس الفرنسية أو المدارس العربية الخاصة التي أنشأها جمعية العلماء<sup>40</sup>، ولم تأت سنة 1954 حتى أصبح لدى الجزائر جيل من الطلبة كبير العدد والعدة الثقافية، يحمل هم الأمة والوطن، ويتمتع بمستوى رفيع من الحس الحضاري والوطني، ويشارك في المعركة السياسية والثورية.

المرحلة الثالثة: الفعل الثوري (الوعي بالمصير) 1954-1962: كان الطلبة على وعي تام بالظروف التي أدت إلى قيام الثورة التحريرية في نوفمبر 1954، فإلى جانب آثار مجازر 8 ماي 1945 التي أكدت للشعب الجزائري قهات الحل السياسي أمام طغيان فرنسا، والانسداد الذي وصلت إليه الأحزاب السياسية بكل مشاكلها في الداخل، ونجاح الثورة المصرية في 23 جويلية 1952، واندلاع الكفاح المسلح في كل من تونس والمغرب ضد الحماية، وأهزام فرنسا في الهند الصينية في ديان بيان فو في 7 ماي 1954، كل ذلك هيا الطلبة لمناخ جديد جعلهم أقدر وأجراً على التحرك والمشاركة الفعالة من موقعهم الذي يتيح لهم المناورة الإيجابية.

وتحكمت في الحركة الطلابية أثناء الثورة مرحلتان أساسيتان:

1- مرحلة الفعل التكاملي مع الثورة (1954- إضراب 19 ماي 1956): لم تتردد الطبقة الطلابية في الالتزام بالخطوط العريضة للثورة منذ بدايتها. وكان تعاملها مع الثورة يندرج في إطار من "المشاركة والمواهمة"، إذ التحقت مجموعة من الطلبة بالثورة المسلحة بصفة محدودة، بينما بقيت عمومهم في مقاعد الدراسة تثير الطلبة والمجتمع الجزائري، وتشرح للطلبة الفرنسيين قضيتهم الوطنية وشرعية الثورة، ويقدمون لهم الشهادات الحية عن الإرهاب الفضيعة الذي يقوم به الجيش الفرنسي الاستعماري ضد المجاهدين الجزائريين وضد الشعب الجزائري،

وحاولوا تقريب الصورة لهم بالمقارنة بما فعله الجيش النازي وجنود الجستابو الألماني ضد الفرنسيين، ووضحوا لهم الرعة الوطنية اتجاه الاحتلال سواء الفرنسي أو الألماني<sup>41</sup>.

وفي إطار من الحرص على إيصال كلمة الثورة إلى الرأي العام الفرنسي في الجزائر والخارج قام الطلبة بتنظيم ندوات ومحاضرات وجمعيات للتعريف بالثورة الجزائرية وهم في مقاعد الدراسة، غير أن الشرطة الفرنسية لاحقت تحركاتهم بالاعتقال والتعذيب<sup>42</sup>. وكان رد الطلبة الفرنسيين متجها إلى تجريم الثورة دون مراعاة للإرهاب الوحشي الفرنسي.

ومما ينبغي التأكيد عليه هو أن الثورة الجزائرية استطاعت في فترة وجيزة نسبيا رغم مجاہتها لدولة مستكبرة ومتمرسة في الاغراء والقمع والإرهاب، ورغم بساطة أدواتها، أن تؤسس لفكر ثوري حقيقي، استطاعت من خلاله استقطاب مختلف شرائح المجتمع، وكانت إستراتيجيتها تهدف إلى عزل فرنسا عن الشعب الجزائري وقطع صلتها به، ثم تأطيره وفقا لمشروع الاستقلال الوطني. ولتحقيق هذا الهدف أوعزت إلى الشعب الجزائري بمقاطعة الاتحادات والمنظمات الفرنسية التي كانوا ينتسبون إليها، وإنشاء منظمات جماهيرية منفصلة عن الهياكل التنظيمية للإدارة الفرنسية في إطار الانفصال أو الاستقلال التدريجي المحلي عن فرنسا وتنظيماتها، وتجنيدها للمشروع الوطني والثورة. وكان الطلبة من أوائل الفئات التي أعلنت استقلالها عن التنظيم الفرنسي استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني.

"وهكذا قرر الطلبة الجزائريون في جامعة الجزائر أن يفصلوا أنفسهم وأن ينسلخوا من الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين الذي تشبث بعقليته الاستعمارية، وأصر هو الآخر على اعتبار الثوار الجزائريين خارجين عن القانون ولصوصا"<sup>43</sup>، وقام الطلبة بتأسيس هيئة مستقلة سموها "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين"<sup>44</sup> UGEMA وذلك في (8-15) جويلية 1955 بعد 9 أشهر من اندلاع الثورة، وترأسه أحمد طالب الإبراهيمي<sup>45</sup>، وكان من أهدافه الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية لكل الطلاب الجزائريين أينما كانوا- وتوحيد الطلبة وربط مصيرهم بمصير شعبهم المكافح ضد الاستعمار الفرنسي.

وهكذا تمت عملية الانخراط الرسمي للطلبة الجزائريين في مشروع الثورة التحريرية، وأصبحوا خلية من خلايا جبهة التحرير الوطني، وساهموا بشكل فعال في توضيح شرعية الثورة وحق الشعب الجزائري في الدفاع عن وطنه واستقلاله، وأصبحوا يتحسسون مواجع الشعب ومعاناته في كل لحظة من لحظات الكفاح.

إن ميلادا "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" يشكل نتاجا للرؤية الإستراتيجية التي عملت الثورة على رسمها في الداخل وانتظار نتائجها في الداخل والخارج. وكان هذا الإعلان في ذاته هدفا أوليا وأساسيا لكل الأهداف المسطرة في المستقبل، وتتويجا ونجاحا باهرا لجهود كبيرة بذلت من أجل تحقيقه.

ومن جانب آخر كان لتأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين أثار نفسية كبيرة على تفجير قدرات الثورة والرفع من معنويات قادتها وجيشها، فبعد حوالي شهر من تأسيس الاتحاد جاءت هجومات الشمال القسنطيني في 20 أوت 1955 ضد مراكز الاحتلال لتأكيد قوتها والقضاء على أي تردد لدى بعض الهيئات والأحزاب، ولفك الحصار على الأوراس، وإسماع صوحا للعالم كله<sup>46</sup>.

وقد أحدث تأسيس هذا الاتحاد الطلابي انتفاضة قوية في باقي الفئات الوطنية الأخرى التي سارعت إلى فك ارتباطها وقطع علاقتها بالهيئات الفرنسية، فتأسس الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فيفري 1956 برئاسة عيسات إدير، والاتحاد العام للتجار الجزائريين في سبتمبر 1956. ولا يمكن تقدير التوجه الشعبي العام وارتياحه ومساندته لهذه الخطوات الكبيرة.

واستمر النضال والنشاط المركز للطلبة الجزائريين حيث أعلنوا يوم 20 جانفي 1956 إضرابا إنذارا للسلطات الفرنسية لتوقف همجيتها على الشعب الجزائري. في حين كان الطلبة الفرنسيون قد انحازوا كلية للموقف الاستعماري، وكانت لهم مواقف مساندة للاستعمار، ففي تصريح صحفي لرئيس الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين "جان مارك سوسرون" جاء فيه: "بأن الطلبة الجزائريين كانوا ولا يزالون موضع ضغط عنيف من قبل الثوار الوطنيين"، فانبأ الرد عليه رئيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين "من فرنسا السيد أحمد طالب الأبراهيمي في رسالة مفتوحة وجهها إلى جميع الصحف الفرنسية ونشرت في يوم 1956/2/25 في جريدة لوموند وتضمنت العبارات التالية: "إذا كان الطلاب العرب موضع ضغط معين من قبل أحد، فإن ذلك الضغط هو ضغط الضمير، هذا الضمير الذي يملئ عليهم أن لا يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه الآلام المرعبة التي يقاسيها شعبهم المجاهد، ويدفعهم إلى التضامن معه والنضال إلى جانبه. ونود أن نعلن نحن الطلبة الجزائريون للمرة الأخيرة بأنه إذا كان المقصود باللفظة "عصاة" أولئك الذين يدافعون عن حرياتهم وكراماتهم وحقوقهم في الحياة، والذين اضطروا لحمل

السلاح بعد أن سُدت في وجوههم جميع الأبواب فإن جميع الجزائريين وفي طليعتهم الطلبة هم من العصاة"<sup>47</sup>.

ويبدو أن الطلبة الجزائريين كانوا يتحسسون أنفاس الشعب وينظرون إليه بمسؤولية نوعية، فبعد أن افتك كل من المغرب وتونس استقلالهم في شهر مارس من سنة 1956<sup>48</sup> قرروا في نفس هذا الشهر(مارس) من نفس السنة عقد المؤتمر الثاني للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" قبل موعده بأربعة أشهر في باريس بفرنسا، واتخذوا خلال هذا المؤتمر موقفا حازما وواضحا تجاه الثورة الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري، وطالبوا باستقلال الجزائر، وطلبوا من الحكومة الفرنسية التفاوض مع جبهة التحرير الوطني. وفي هذا المؤتمر ظهر الطلبة بمنهج المفاصلة مع الاستعمار ومساندتهم المطلقة للثورة التحريرية، واعترفهم الرسمي بجبهة التحرير الوطني.

ولم تكن فرنسا بالمقابل لتسمح بمثل هذه القرارات فقامت بحملة اعتقالات واسعة وشرسة ضد الطلبة الجزائريين، واستمر تعذيبهم في باريس ومعظم المدن الفرنسية التي يتواجدون فيها<sup>49</sup>.

2- مرحلة الفعل الثوري أو المشاركة الثورية (19 ماي 1955 - 1962): توالى الأحداث في الجزائر، وقويت شوكة الثورة في كسر الإستراتيجية الفرنسية التي حاولت أن تحجم من دور الثورة وتنتعها بالعصاة. وبعد أن انضمت مختلف جهات الوطن للثورة<sup>50</sup>، وانضمت كذلك معظم الأحزاب السياسية إلى جبهة التحرير الوطني بعد أن حلت نفسها، وبالتنسيق المحكم بين اتحاد الطلبة والثورة ولتبيد ادعاءات الاحتلال والتحاق كل من فرحات عباس<sup>51</sup> وأحمد توفيق المدني(نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين) بصفوف الثورة في 22 أبريل 1956 (أي قبل الإعلان عن الإضراب بأقل من شهر)، وبعد التصفيات التي تعرض لها الشعب، والإعدامات التي لحقت بمجموعة من الطلبة الجزائريين، تأكد للرأي الطلابي الجزائري أن فرنسا ماضية في هجمتها ضد شعبهم، وأن مكانهم في هذه المرحلة ليس في مقاعد الثانويات والجامعات الفرنسية ومدرجاتها، ولكن في الجبال إلى جانب مجاهدي جيش التحرير الوطني، فقررت منظماتهم الطلابية "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" القيام بإضراب عام لانهائي عن الدروس والامتحانات في جامعة الجزائر وثانوياتها، وفي الجامعات الفرنسية، وفي كل جامعة يتواجد فيها طالب جزائري، في المغرب وتونس ومصر وغيرها، وأمرت الطلاب والتلاميذ أن

يلتحقوا بجيش التحرير الوطني في الجبال وخلايا جبهة التحرير الوطني التي وفرت لهم سبل الانضمام إلى صفوفها، وقد أصدر "الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين" ندائه في 19 ماي 1956<sup>52</sup>.

وقراءة متأنية لما جاء في بيان الإضراب يمكن تلخيصه فيما يلي:

- 1- إدانة الطلبة للاستعمار ووحشيته في القتل والحرق للطلبة والمتقنين وعموم الشعب.
- 2- تحدث البيان باسم كامل التراب الوطني لتأكيد شمولية الثورة للوطن كله من الشرق إلى الوسط إلى الغرب فذكرت كل من: تبسة- قسنطينة- سكيكدة- جيجل- بجاية - الجزائر العاصمة- تلمسان.
- 3- الدعوة للالتحاق بالثورة في الجبال.

وتمحورت إستراتيجية الطلبة بعد إعلان الإضراب في مستويين:

- المستوى الأول: المشاركة الداخلية مع جنود الثورة في الجبال في كل التخصصات.
  - المستوى الثاني: المساهمة في تنوير العالم في أنظمتها السياسية ومنظماتها الطلابية الأوروبية والعربية والأمريكية والآسيوية بمشروعية الثورة وحق الشعب الجزائري في استقلاله.
- لعله من المفيد التأكيد على أن نداء الإضراب لم يكن قرارا طلابيا بحتا، إذ أن كثيرا من الطلبة كانت لهم صلات قوية بجيش التحرير الوطني الذي كان قادته يخططون لمثل هذه الإضرابات حتى يتمكنوا من فك الحصار على الثورة وتوسيع مداها وإظهارها في الخارج على أنها ثورة شعب وليست كما تدعي فرنسا "عصابات".

إن قيادة الثورة استطاعت أن توجه طاقات الطلبة فيما يخدم الشعب وثورته في وقت رأت فيه أنه لا يمكن أن يبقى أي أحد خارج المشروع الوطني الممثل في تدعيم الثورة وإنجاحها لأن فشل الثورة انهدم للشعب.

ولا يمكننا في الحقيقة تلمس سقف النتائج التي حققها هذا الإضراب إلا بالنظر في الظروف التي كانت تتحكم في البنى النفسية والاجتماعية في الداخل الجزائري ثورة وشعبا، والمآلات التي كانت المبتغى وراء ذلك في الخارج من جهة، وفي السياسة الاستعمارية وعقيدة البقاء والهيمنة والاحتواء والاطمئنان على السيادة والسيطرة في الداخل من جهة أخرى.

إن الإضراب في أحد تجلياته يعبر عن قمة القلق الذي انتاب قادة الثورة خوفا على مشروعها من الانهيار، لأن العدو المحتل يترصد للإجهاد عليه بكل الطرق. لقد كانت الثورة في

حاجة ماسة إلى أي سند، وإلى التفاف كل فئات الشعب حولها إن في الداخل أو في الخارج، وجاء إضراب الطلبة في هذه الظروف كأهم ركيزة في عمليات الإسناد، وأهم حلقة في سلسلة التأثير والتواصل، وأعطى نفسا جديدا انتعشت به الثورة وحافظ على وجودها.

إنه من الواجب أن نؤكد بأنه في هذا الظرف تحول الشعور الشعبي الجزائري من الترقب إلى الفعل، ومن اليأس والركون إلى الأمل والطموح في الاستقلال، وتغيرت نفسيته من الانطوائية والانزواء، إلى الحركة والالتحام والتجاوب في أعماق الثورة.

وما إن آنس القادة بأن الثورة تجاوزت مرحلة الخطر، وأصبحت في مأمن على شرعتها ومشروعها حتى قرروا حل الإضراب بعد 17 شهرا من إعلانه وذلك في 14 أكتوبر 1957. وكان هذا الإلغاء في ذاته رسالة للشعب الجزائري بقوة ثورته، وسلامة قضيته، وأن ثورته وحقه في الاستقلال لم يعد لها ما يهددها، وهي في موقع قوة وأن الاستقلال قاب قوسين أو أدنى. ورسالة إلى الاحتلال بأن القضية باتت في مأمن ولم يبق له سوى الرحيل.

واستمرت مسيرة الطلبة، وعقدوا مؤتمرهم الثالث في ديسمبر 1957. وفي 28 جانفي 1958 قررت سلطات الاحتلال حل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين واعتقلت أعضائه في باريس، واضطرت لجنته التنفيذية مغادرة فرنسا إلى سويسرا. واستمرت المسيرة إلى غاية الاستقلال.

الخاتمة: إن كل المؤشرات التاريخية تدل على أن الحركة الطلابية لم تكن في يوم من الأيام بعيدة عن المعترك السياسي وهموم الشعب والتوجه الوطني، حتى في أيام اضمحلالها في نهاية القرن التاسع عشر. ومنذ بداية القرن العشرين أصبحت الحركة الطلابية في معظم توجهاتها تعبيرا عن آلام الشعب وآماله.

لقد كانت جهود الطلبة معبرة عن عبقرية فذة تميز بها الطلبة الجزائريون،. وحالة مفصلية في تاريخ الشعب الجزائري إبان الاحتلال، ذلك أن الثورة استخدمت سلاح الطلبة الذي كان آخر سلاح ادخرته لليوم الأسود، وكان الطلبة في مستوى التحدي، وعلامة من علامات التكامل الوطني، ولحمة أساسية ونوعية أسهمت في توطيد أركان الثورة وإخراج صوتها للعالمين.

## الهوامش:

- 1- انظر، أحمد توفيق المديني: حرب الثلاثانة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م.
- 2- حميدة عمراوي: دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية (1827-1840)، دار البعث، قسنطينة الجزائر، ط1، 1407هـ/1987م، ص 43-47.
- 3- مصطفى الأشرف: الجزائر الامة والمجتمع، ترجمه حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص 40، حيث يقول: "ولئن كان الاستعمار قد استعمل في بداية عهده الاسلحة الفتاكة، والقوانين الجائرة بقصد اخضاع المغلوب فقد عقبه استعمار اخر استعمل اسلحة من نوع اخر، كالوقاحة والخبث والاستهتار والعدو والنظائر بالشفقة والموضوعية الكاذبة".
- 4- من محاضرة للطبيب برغوث بجامعة الامير عبد القادر بدون تاريخ، وانظر كذلك، بوصفصاف عبد الكريم: الفكر العربي الحديث والمعاصر، محمد عبده وعبد الحميد بن باديس نموذجا، دار مداد، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1430هـ/ 2009 م، ج1، ص137. الذي وضع هذا المشروع في قاعدتي: الهدم والبناء، هدم التعليم بعنصريه الاسلام واللغة العربية، وبناء هوية جديدة عن طريق فرنسا الثقافة. وانظر كذلك، محمد البشير الإبراهيمي: الاسلام في الجزائر، حديث من اذاعة صوت العرب - القاهرة- 1955، من كتاب: مواقف الامام الإبراهيمي الاسلام في الجزائر في عهد الاستعمار، اعداد محمد دراجي، عالم الافكار، ط 2007، ص 255 - 261.
- ويحيل سعد الله ابو القاسم إلى هذه المقاربة في مقدمة كتابه: الحركة الوطنية الجزائرية، دار البصائر، الجزائر، ط6، 1430هـ/2009م، الجزء الأول، القسم الأول، ص 18.
- 5- قال الجنرال دوبرمون مخاطب جنوده بعدما استولى على مدينة الجزائر: "لقد جددتم عهد الصليبيين". وكان الرحالة الفرنسي بوجولا Poujoulat سنة 1844 الذي كان وثيق الصلة بالمارشال بيجو Bugeaud وبأسقف الجزائر دوبروش Dupuch قد كتب مذكرات عن رحلته متوها برسالة فرنسا التبشيرية في الجزائر، وقد اورد وصفا لما دار بينه وبين بيجو من حديث: "قال لي المارشال بيجو يوم قابلته منذ سنتين في منزله بمدينة الجزائر: "ماذا جئنا نعمل في إفريقيا فاجبت: "لكي نواصل العمل الذي بدأه غودفروا Godefroy ولويس السايح، وسان لويس". وبعد ان تحدث بوجولا طويلا عن رسالة فرنسا التبشيرية مع المارشال بيجو الذي كان يصغي إليه باهتمام، أنهى كلامه قائلا: "إن الحرب التي نقوم بها في إفريقيا انما هي حلقة من حلقات الحروب الصليبية"، مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص 51.
- 6- مصطفى الأشرف: المرجع السابق، ص 129. نقلا عن General Ducrot: Correspondance, Tome2.
- 7- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية، الجزء الأول، القسم الأول، ص 74.
- 8- نفسه، ص 74-75.
- 9- انظر سعد الله: المصدر السابق، ص 78-80. مدينة عنابة كان بها 37 مسجدا وبقي فيها مسجد واحد. عن مدينة بجاية وما حل بمؤسسائها من خراب ينظر المجلة الإفريقية لسنة 1858 ص 458-462، وسنة 1859م، ص 299-302 نقلا عن المصدر نفسه. كما كان يوجد في قسنطينة سنة 1837 غداة الاحتلال 35 مسجدا و7 مدارس تجمع بين 600 الى 700 تلميذا، وتسعون مدرسة ابتدائية يتردد عليها حوالي 1350 طفلا، وكانت قسنطينة لا يمكن مقارنتها إلا بمدارس تونس والقاهرة. انظر، زوزو عبد الحميد: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830-1900) ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 209. غير أن سعد الله يجعل عدد المساجد بقسنطينة غداة الاحتلال 70 مسجدا، انظر، المصدر السابق، ص 81.
- 10- سعد الله: المصدر السابق، ص 76-77.
- 11- المصدر نفسه، ص 82. وانظر كذلك، بوصفصاف عبد الكريم: المرجع السابق، ج1، ص 136.
- 12- سعد الله: المصدر السابق، ص 83.
- 13- طلاس مصطفى: الثورة الجزائرية، ص 54.

- 14- انظر اعتراضات أعضاء المجلس البلدي وأعيان المسلمين بقسنطينة حول بعض هذه القوانين في التقرير الذي تقدموا به إلى أعضاء اللجنة المنتخبة من مجلس السينا (البرلمان) للنظر في التنظيمات اللازمة للإقليم الجزائري ولإصلاح أحوال سكانه الذي حرر في 5 أكتوبر 1891م، وطبع بمطبعة السيد مارل الكائنة بنهج دورليان، عدد 5 بقسنطينة، سنة 1892، ويحوي عرض حال قدم في عشر مسائل. وفيه بالخصوص: المسألة الثانية: مسألة تنظيم قانون الشريعة الإسلامية من ص 11 إلى ص 15. والمسألة الثالثة: مسألة التعليم والقراءة بالمدارس الفرنسية من ص 16 إلى ص 18. ويؤكد التقرير أنه لا توجد على مستوى التراب الجزائري كله سوى ثلاث مدارس سنة 1891.
- 15- انظر، المصدر السابق، ص 16.
- 16- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، عالم المعرفة، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، ج 4، ص 157. حمادي بن موسى: سياسة التعليم الاستعمارية في الجزائر، ومواقف الاهالي المسلمين منها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مقال في المجلة التاريخية المغاربية، تونس، السنة 39، العدد 146، مارس/أذار 2012، ص 141.
- 17- طلاس مصطفى: الثورة الجزائرية، ص 55.
- 18- حمادي عبد الله: الحركة الطلابية الجزائرية، ص 20-21.
- 19- كان رسالته للدكتوراه عن أبي دلالة وشعره.
- 20- أنشئت جامعة الجزائر سنة 1909.
- 21- الدكتور محمد بن أبي شنب (1869 - 1929) انظر ترجمة وافية له في:  
الجيلالي عبد الرحمن بن محمد: ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب، طبع الكتاب في الجزائر سنة 1352هـ/ 1933م. أي بعد مرور أربع سنوات على وفاته. انظر كذلك، سعد الله أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، ص 156-162.
- 22- كانت للدكتور محمد بن أبي شنب لقاءات ومراسلات مع مجموعة من العلماء العرب والمستشرقين نذكر منهم: العلامة أحمد تيمور باشا بمصر- جماعة المجمع العلمي بدمشق وعلى رأسهم محمد كرد علي - وعلامة تونس حسن حسني عبد الوهاب- والوزير المغربي محمد المقرئ- والسيد أحمد الرهوني المغربي- والشيخ عبد الحفي الكتاني الذي التقى به في مؤتمر المستشرقين في رباط الفتح سنة 1928م.
- ومن المستشرقين كوديرا- كراتشوفسكي - ليفي بروفنسال - ومارجيليوث- نالينو الإيطالي - وكان من تلاميذه الفرد بيل. وكما كان يتقن تسع لغات: العربية، الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، الألمانية، اللاتينية، الفارسية، التركية، العبرانية. انظر، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: ذكرى الدكتور محمد بن أبي شنب.
- 23- أحصى الجيلالي مؤلفات وأبحاث ابن أبي شنب فبلغت بضعا وثلاثين انظرها في كتابه السابق.
- 24- قام ابن شنب بتحقيق هذا الكتاب اعتمادا على ثمان (8) مخطوطات موجودة في التراب الجزائري وصححه بمراجعة بعض الأصول التي نقل عنها ابن مريم، كما وضع بآخره أربعة فهارس في التراجم والأعلام والأماكن وأسماء الكتب. واعتمادا على نسخة ابن أبي شنب أعاد ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر طبع الكتاب سنة 1406هـ/ 1986م بعد حوالي ثمانين سنة من تحقيقه.
- 25- بعد حوالي سبعين 70 سنة قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر ببيروت بإعادة طبع هذا الكتاب "عنوان الدراية" سنة 1969م بعناية الأستاذ عادل نويهض الذي اعتمد على نسخة ابن أبي شنب، وزاد عليه بالترجمة لأعلامه المذكورين في منته، وقد أثبت نويهض مقدمة ابن أبي شنب للطبعة الأولى سنة 1910 م، وكان حينها مدرسا بالمدرسة الثعالبية الدولية وكلية الآداب العليا بالجزائر.
- 26- أعادت دار المنصور بالرباط طبع هذا الكتاب سنة 1972 بعد أكثر من نصف قرن على طبعة ابن أبي شنب، وقد اعتمدت الدار على نسخة ابن أبي شنب كنسخة أولى أساسا في إعادة الطبع، بعد أن رجحت أن مؤلف الكتاب هو ابن أبي زرع الفاسي صاحب كتاب روض القرطاس. انظر، ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص 7.

27- حقق هذا الكتاب بعد أربعين سنة من قبل محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي بالدار التونسية للنشر سنة 1968م، وقد أشار الخققان إلى ابن أبي شنب ومقاله حول الفارسية في مجلة هسبريس 1928 المجلد 8.

Mohamed Ben Cheneb: La Farisiya ou la Dynastie hafside par Ibn Qunfud de Constantine( Hespérus 1928) T 8

28- عبد الرحمن بن محمد الجليلي: المصدر السابق، ص 29.

29- للأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله رأي آخر حول شخصية محمد بن أبي شنب حيث قال فيه بأنه: "صنعة الاستشراق الفرنسي، اسلوبا عندما يكتب، وتحركا في دائرة التراث بما يخدم أهدافهم"، وأورد عبارات قالها فيه تلميذه وصديقه الفرد بيل في تأييده: "إن ابن أبي شنب كان وطني المظهر فرنسي المخبر، وأن فرنسا كانت تتفق فيه وترسله في مهمات دقيقة، ولذلك كافأته بالأوسمة ورموز الاعتراف بالجميل". انظر، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ص 159 - 160. بل وصل الامر الى حد اتقاه في وطنه عندما كتب عنه في كتابه "تجارب في الادب والرحلة"، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1403/1983م، ص 75، بقوله: "ونحن نركز على هذه العلاقة بين ابن أبي شنب والمستشرقين لأنها أثرت على اسلوبه في الكتابة وحتى على انتمائه السياسي، فقد منحته فرنسا وسام فارس جوقه الشرق سنة 1922 لولائه وخدماته، وأرسلته في عدة مهمات لأنه كان موضع ثقة رجالها"، نقلا عن كلمة تأييده من قبل الفريد بيل في المجلة الاسيوية عدد 214 سنة 1929، ص 364-365. وجاء في ص 78 من نفس الكتاب: "وكان (ابن أبي شنب) في نظرنا يخدم الاستشراق والثقافة الفرنسية أكثر مما يخدم التيار العربي والثقافة العربية".

ولتوضيح الموقف نقول: إن النشاط العلمي للرجل يؤكد أنه على قدر كبير من الوعي والذكاء، وظل حارسا أميناً على الثغرة التي كان عليها، وكان يعي التاريخ جيدا، وكان لهذا الوعي اثره العميق في توجهه العلمي فأراد ان يتحدى الاستعمار بالعلم -كما اشار الى ذلك سعد الله نفسه، في كتابه أبحاث وآراء، ج4، ص 157- ويكفيه أمانة إحيائه لتلك المجموعة من كتب التاريخ العلمي الإسلامي والجزائري، وترك ما لا يحسنه لمن يحسنه في السياسة وغيرها. فهل كان نشره لـ "عنوان الدراية" و "الستان" و "طبقات علماء افريقية" و "رحلة الحسين الوتريلاني" و "الفارسية" لابن قنفذ وغيرها خدمة للثقافة الفرنسية؟ إن العجب ليستولي على الباحث عندما يعلم الخيط العلمي والاجتماعي الذي كان ابن أبي شنب يسبح في فلكه، وكيف استطاع ان يحافظ على انتمائه مظهرا في لباسه، ومخبرا في توجهاته الحضارية، وان يتجاوز بدهائه وذكائه كل الاغراءات التي رصدت له، وكل النماذج التي كانت تراءى حوله، وان يبقى صامدا محتسبا. أما كلمة الفرد بيل فهي جزء من الدعاية أو السعاية الاستعمارية للتنكر للعلماء ومحاولة تشويه جهودهم.

وتكفي لمكانة الرجل إشارة وإشادة ابن باديس به عندما قال: "لما عرفناه فقدناه"، (انظر هذا القول الاخير في، الجليلي: المصدر السابق، ص 98، نقلا عن مجلة الشهاب، الجزء الثالث من السنة الخامسة، و بوصفصاف عبد الكريم: المرجع السابق، ج1، ص 152)، وفي ذلك حسرة كبيرة على فقد هذه الشخصية الفذة، واعتراف بمكانته في احياء موات الامة الجزائرية. وكذلك ما قاله في حق الشيخ محمد البشير الابراهيمي في الخطبة التي ألقاها في أتم التأبين في يوم الاثنين من وفاته يوم الاحد 6 شوال 1347هـ: "انهم فقدوا بفقده ركناً من اركان العلم الصحيح، وعلماً من أعلام التاريخ الصحيح، ومثالا مجسما من الاخلاق العالية والخلال الرفيعة" انظر الجليلي: المصدر السابق، ص 99، وفي ذلك تأكيد على اصالة فكر الرجل ونفاسة اعماله، واتفاقهم (ابن باديس والابراهيمي) معه في التوجهات الاساسية لما قام به، وادراجها في صلب مشروع اعادة بعث الامة التي يناضلان من اجلها. اما تلميذه عبد الرحمن الجليلي فقد نعت في مقدمة كتابه سنة 1933 بقوله: "فقيه الوطن والعلم والإسلام"، ص 4.

ومن جهة اخرى يبدو ان الاستاذ ابا القاسم سعد الله الذي كان طالبا في المشرق ومعاصرا للثورة التحريرية المباركة ومجاهدا في صفوف الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، لم يستغ بروحه الثورية اداء ابن أبي شنب، ولم يبين ثورته الصامتة المرتبطة بالمكان والزمان والأحوال والظروف التي تعيشها الجزائر في عمق ابن أبي شنب، ولو قُدِّر لابن أبي شنب ان يمتد به العمر الى الثورة لكان بلا جدال احد المساهمين فيها بقلمه ونفسه

- 30- زار محمد عبده الجزائر سنة 1903 والتقى مجموعة من علمائها وطلبتها، وزار بعض مدنها الأساسية كقسنطينة، ولأمر ما كانت دروسه التي ألقاها بمساجد العاصمة على طلبة العلم تناولت تفسير سورة العصر انظر، بوصفصاف: المرجع السابق ج1، ص 245، نقلا عن رضا محمد رشيد: تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده، مطبعة المنار، 1323 د، ج3، ص17.
- 31- من أهم الاحداث: انتصار الحركة الوهابية ونشأة الدولة السعودية، وسقوط الخلافة العثمانية.
- 32- حمادي عبد الله: الحركة الطلابية الجزائرية، ص. 53.
- 33- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر.
- 34- سعد الله أبو القاسم: المرجع السابق، ج3، ص 20.
- 35- سعد الله أبو القاسم: الحركة الوطنية، ج2، ص 429.
- 36- اللون الأخضر: إشارة إلى تونس الخضراء. اللون الأبيض: إشارة إلى الجزائر البيضاء. اللون الأحمر: إشارة إلى مراكش الحمراء.
- 37- سعد الله أبو القاسم: أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص61، نقلا عن عريضة بتاريخ 1935/11/29، وتاريخ بوقية العشايش (طريقي متعاون مع فرنسا) 1935/11/22، والعريضة مرفقة بمراسلة من نائب الوالي بتلمسان إلى والي وهران يوم 1935/11/30 (رقم 7343 تقارير الشرطة الفرنسية).
- 38- بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية.
- 39- انظر نشرة أعمال المؤتمر الثالث لجمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين، التي طبعت بتونس سنة 1933، ص 14-15 وفيها أن البرقيات تفاقمت على المؤقرين طوال أيام المؤتمر من قبل: جمعية الشبيبة المدرسية بتونس - أعضاء اللجنة التنظيمية بفاس - جمعية طلبة شمال أفريقيا بالجزائر - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بالجزائر - جمعية قدماء التلاميذ بمدينة سلا بالمغرب الأقصى - جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الثانوية بفاس - طلبة جامع القرويين بفاس - اهل مراكش. كما تلقى المؤتمر رسائل من شخصيات منها: السيد الهادي الشرايبي من أساتذة جامع القرويين - الدكتور أحمد بن ميلاد من تونس - السيد المكي الناصري من الرباط - السيد ادريس شقرون من مراكش - السيد مالك بن نبي أحد الطلبة الجزائريين بفرنسا.
- 40- بلغ عدد مدارس جمعية العلماء 150 مدرسة حتى سنة 1945 يتعلم فيها أكثر من 50000 طالب. انظر، بوصفصاف: المرجع السابق، ج1، ص 375. عدد المدارس في مدينة قسنطينة وحدها بلغ 85 مدرسة سنة 1938، وكان يتردد عليها 4047 طالبا. انظر بوصفصاف: المرجع السابق، ج1، ص 378.
- 41- بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية.
- 42- نفسه.
- 43- نفسه.
- 44- ظهر بعد ذلك: الاتحاد العام للعمال الجزائريين في 24 فيفري 1956 برئاسة عيسات إيدير، وانظم بعد ذلك إلى الاتحاد العالمي للفتيات الحرة في شهر جويلية من نفس السنة 1956. الاتحاد العام للتجار الجزائريين في سبتمبر 1956.
- 45- حمادي عبد الله: الحركة الطلابية الجزائرية، ص 56. من مؤسسي الاتحاد وفروعه: أحمد طالب الابراهيمى - عبد الحميد مهري - بلعيد عبد السلام - محمد بن يحيى - مسعود آيت شعلال - عبد الرحمن شريط - عيسى مسعود - يحيى بعزير - أبو القاسم سعد الله - عبد الحميد بن هدوقة...
- 46- وكانت رمزية هذا التوقيت تحمل في طياتها معنيين أساسيين قصدهما قادة الثورة: البعد الأول إسلامي إذ كان يوم 20 أوت يوافق غرة السنة الهجرية الجديدة 1375هـ، والبعد الثاني مغاربي يحمل الذكرى الثانية لنفي الملك المغربي محمد الخامس في 20 أوت 1953م.
- 47- طلاس مصطفى: الثورة الجزائرية، ص 270-271.
- 48- استقل المغرب في 2 مارس 1956، واستقلت تونس في 20 مارس 1956.

- 49- بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية.
- 50- جاء في صدر جريدة لوموند الفرنسية ليوم 1956/2/24 هذا العنوان البارز: "التمردون الجزائريون يضاعفون الهجوم على امتداد القطر الجزائري من الشرق القسنطيني حتى الحدود المغربية" **Du constantinois a la frontière marocaine les rebelles Algériens redoublent d'agressivité** انظر، مولود قاسم نايت بلقاسم: دور فاتح نوفمبر في استرجاع ليبيا فزانها والمغرب وتونس استقلالهما بل وأفريقيا كلها حريتها، ضمن كتاب "الثورة الجزائرية وصداها في العالم"، اشغال الملتقى الدولي الجزائري (24-28 نوفمبر 1984)، نشر المركز الوطني للدراسات التاريخية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 138.
- 51- أعلن فرحات عباس حلّ حزبه "حزب البيان الديمقراطي" وانضمامه للثورة في مؤتمر صحفي عقده بالقاهرة في 1956/4/25، انظر، طلاس مصطفى: الثورة الجزائرية، ص 238.
- 52- انظر نص بيان الاضراب في، بوعزيز يحيى: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية، نقلا عن جريدة المجاهد لسان حال جبهة التحرير الوطني، عدد 1 بدون تاريخ، ص 19-20. طلاس مصطفى: الثورة الجزائرية، ص 269-270.